

إحسان عباس ناقد متعدد الاتجاهات

د. نبيه القاسم

إحسان عباس واحد من الكبار الذين تركوا بصماتهم على مسيرة الثقافة العربية على مدار خمسة عقود ، وقد تميّز بتشعب اهتماماته وموسوعية معرفته وعمق أبحاثه وجديتها ، فهو الباحث والناقد والمؤرخ والمحقق والمترجم والمبدع وهو المبرز في كل منها. ولأنه يستحيل على الواحد أن يتناول كل هذه الجوانب في شخصية فقيدنا الكبير فقد اخترت جانبا مميّزا كان له تأثيره المهم والريادي على حركتنا الشعرية المحلية وهو جانب النقد . حيث كان لكتابه النقدي عبد الوهاب البياتي والشعر العراقي الحديث عام (١٩٥٥) الأثر المهم والمباشر على تعريف شعرائنا هنا على تيارات الشعر الحديثة والتحوّلات الكبيرة على مبنى ومضمون القصيدة العربية . وقد وصف الناقد محمد دكروب كتاب احسان عباس عن البياتي بأنه كتاب اقتحامي وطليعي، وذلك لأنّ الشعر العربي الحديث كما يقول دكروب كان " في البدايات من اقتحام جديده الثوري الساحة العربية الثقافية، وكانت القوى والعناصر التقليدية في الثقافة العربية، وحتى بعض العناصر التقدمية في هذه الثقافة، ترى في " بدعة " الشعر الجديد، شعر التفعيلة الخارج على عمود الشعر شيئا ما ضدّ التراث وضدّ أصالة الثقافة وحتى ضدّ الشعر نفسه والإبداع أصلا. وكانت الجامعات حصونا مدججة ضد جديد الشعر، وحتى ضدّ جديد النثر وجديد الرواية، فالخارج على التراث والتقاليد وأشكال الكتابة الجاهزة، خارج على الأمة كلها، وحتى على الدين.. فكان كتاب إحسان عباس مغامرة . وتنطلق دراسة احسان عباس لشعر البياتي من منظور تاريخي شدته الحداثة الشعرية التي وجدها في شعر البياتي ، هذه الحداثة التي يرى الناقد فيصل درّاج أنّها كانت نتيجة لتحوّلات اجتماعية ملموسة الملامح، مراجعها الكفاح الوطني ضد

السيطرة الاستعمارية والتطلع الشعبي إلى حياة أفضل ، والصراع بين أشكال الكتابة التقليدية وأشكال كتابية جديدة تواكب التحول الاجتماعي وتتجاوزه. وقد طرح عباس في دراسته لشعر البياتي مفاهيم أدبية جديدة مثل : المبدع ومنظور العالم. من النص إلى خارج النص. الأيديولوجيا الأدبية. الصورة العريضة والطويلة. دلالة التكرار. الإيحاء المبهم. الرمز المختبىء. وغيرها . وقد كانت دراسة عباس عن البياتي كما يرى الدكتور صالح أبو أصبع دراسة نقدية رائدة للشعر الحديث فيها عنصر المقارنة بين الشعر الحدائثي الأوروبي والشعر العربي الحدائثي.

وما ميّز دراسته لشعر البياتي أنّه اعتمد على دراسة الشعر وما تقدّمه له القصيدة ولم يهتم بالشاعر وحياته ، أما في دراسته عن السياب فقد امتزجت القصيدة بحياة الشاعر وكانت مرآة لها وفهم نفسية الشاعر شرط أساسي لفهم القصيدة. ولهذا تتبع عباس مراحل حياة السياب ووقف عند أمرين مهمين : رحيل الأم المبكر. وقبح هيئته. وما كان من أثرهما على شعر وشاعرية السياب.

لم يلتزم احسان عباس في كتاباته النقدية منهجا محددًا، فبينما نراه في كتابه عن البياتي أكد على أهمية الاستقلال الذاتي للنص، فإنّه في دراسته للسياب (١٩٦٩) اختار منهجا مختلفا مازج فيه بين النصّ ونفسية وحياة الشاعر. فجاءت القصيدة لتكون المرآة الكاشفة لحياة ونفسية الشاعر. ويرى الدكتور صالح أبو أصبع أنّ إحسان عباس الناقد ، يستند إلى حصيلة معرفيّة واسعة وثقافة تلم بأركان الثقافة العربية قديمها وحديثها، وتهضم الثقافة الغربية ، كلاسيكية وحديثة، بالإضافة إلى شخصية ذات حسّ شعريّ مرهف وقدرة على تناول النصوص وتدوّقها.

هذه الموسوعية المعرفية تنسحب أيضا على كتاب إحسان عباس النقدي الضخم " تاريخ النقد الأدبي عند العرب " (١٩٧١). وقد أتبع النهج التاريخي حيث تتبّع عصور الأدب العربي وخصص كل عصر بفصل من فصول الكتاب. وكل ناقد من نقاد

العصر بدراسة مستقلة. وأشار إلى قضايا مهمة في الشعر القديم مثل ، المبالغة ، السرقات الشعرية، والأصالة والتقليد. واهتم بقضية الشعر والتكسب. والطبع والصنعة . ومن الأسئلة المهمة التي طرحها في كتابه هذا :

- لماذا اختار العرب للإلهام شياطين بينما اختار الخيال اليوناني عالم (ربّات عذارى خفريات؟). وكان رأيه أنّ الشعر عند العرب ذو مفهوم دفاعي أو هجومي بالدرجة الأولى، فكان لا بدّ أن يكون الشياطين الأشداء - لا العذارى الخفريات - ملهميه.

وتميزت دراسات إحسان عباس بجديتها والتزامها الصدق والعلمية والمعرفة والنظرة النقدية الثاقبة، والتي تعرف كيف تختار وماذا تتناول من خلال دراساته المهمة عن : الشريف الرضي (١٩٥٩)، وأبي حيان التوحيدي (١٩٥٦) ، والحسن البصري (١٩٥٢). هذه الدراسات التي أوصلته إلى كتابة بحثه القيم الذي صدر في كتاب " فن السيرة " ١٩٥٦ " حيث برزت منهجية عباس في تناوله للسير النقدية التي تقوم على ثلاث ركائز يحددها الدكتور خليل الشيخ في :

١- التجلي الفردي للشخصية، وما ينطوي عليه هذا التجلي من أبعاد نفسية مرتبطة بالطفولة. والحياة الأسرية وكثير من المظاهر ذات الصلة بالتكوين السيكولوجي للمبدع.

٢- السياقات الاجتماعية والتاريخية الحاملة لذلك التجلي الفردي.

٣- الإبداع الذي تقدّمه تلك الشخصية.

الحديث عن إبداعات فقيدنا الراحل لا ينتهي ، ولكن حسبي أن أنهي كلمتي بكلمات

الصديق الشاعر ابراهيم نصر الله في فقيدنا الراحل:

ويهبط هذا النهار على ظلّنا مطراً

فيه من لغة الناي حزن قديم

وشيء من الله والأنبياء

ويهبط غيما مضيئاً بحكمة زيتوننا
في دروب المساء
ويهبط أغنية تتجول في عُرف البيت باحثةً عن خيول
وعن أنهر وفضاءً
ويهبطُ هذا النهار..
نراك هنالك في شمسهِ شجراً
يحرسُ الروحَ في زمن الموتِ يا أبتِي
ويردُّ البحارَ التي سقطتُ من ثياب السماء.

ويقول:

ويعرفك الله أكثرَ منَّا لأنك أقربُ للنور
يعرفك الحقلُ أكثرَ منَّا لأنك أقربُ للقمح
يعرفك النهرُ أكثرَ منَّا لأنك أقربُ للعشب
يعرفك الحبُّ أكثرَ منَّا لأنك أقربُ للقلب
يعرفك البيتُ أكثرَ منَّا لأنك أقربُ للدالية
ويعرفك البحرُ يا أبتِي مثل (حيفا).